مدخل

أولاً: ابدأ عملك بالإخلاص

إن الإخلاص من أهم أعمال القلوب، وأعظمها قدراً، وهو أهم شيء في جميع العبادات، وهو أساس قبول الأعمال. والإخلاص: إفراد الله سبحانه بالقصد في الطاعة[٧]، قال تعالى: ﴿**فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا**﴾[٨].

وقال عز وجل: ﴿**وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ**﴾[٩].

قال بعض أهل العلم: إن النية هي الإخلاص، كما نقل ذلك ابن تيمية - رحمه الله -: "وإخلاص الدين هو النية"[١٠].

قال ﷺ: "أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء"[١١].

والإخلاص أحد شرطي قبول العمل، والإخلاص يعظم العمل الصغير، حتى يزن عند الله جبلاً، والرياء يحقر العمل العظيم فلا يزن عند الله جناح بعوضة، فهو يرديه ويحبطه، والإخلاص حصن المؤمن من نزغات الشياطين، وفتن المضلين، ألم ترَ أن الشيطان لا يستطيع إغواء من تحصن بالإخلاص، قال تعالى: ﴿**إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾[١٢].

وعلى هذا فإن الإخلاص شرط قبول العمل عند الله سبحانه، قال ﷺ: "إن الله عز وجل لا يقبل من العمل إلا ما كان له خالصاً وابتُغِي به وجهه"[١٣].

وقبول الأعمال من ثمرات الإخلاص كما أن من ثمرات الإخلاص: نقاء القلب من الحقد والغل والخيانة، فإذا حلّ الإخلاص في قلب امرئ هذَّبه، ونظفه من الآفات والأدغال، وصانه وحصّنه من سيئ الخلال، قال ﷺ: "ثلاث لا يَغِلُّ عليهنَّ قلبُ امرئ مسلم: إخلاصُ العملِ لله، والمناصحةُ لأئمةِ المسلمينَ، ولزومُ جماعتهم؛ فإن الدَّعوةَ تُحيطُ من ورائهم"[١٤].

فالإخلاص من أشرف أعمال القلوب التي يجب أن يُعتنى بها في جميع الأعمال، لا سيما في التعامل مع الآخرين وكسب مودتهم وقلوبهم.

قال الفضيل بن عياض - رحمه الله -: "ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك. والإخلاص: أن يعافيك الله منهما"(١٥).

وقال ابن عجلان: "لا يصلح العمل إلاّ بثلاث: التقوى لله، والنية الحسنة، والإصابة"(١٦).

وعن مطرِّف بن عبدالله، قال: "صلاح القلب بصلاح العمل، وصلاح العمل بصلاح النية"(١٧).

ثانياً: احتسب الأجر

إن المسلم وهو يتقرب للناس بدعوتهم وكسب قلوبهم ومودتهم، فإنه ينبغي أن يحتسب - بعمله هذا - الأجر من الله سبحانه وتعالى.

وإذا كانت الأعمال المباحة تتحول إلى طاعة يؤجر عليها المسلم بالاحتساب، فمن باب أولى ما يكون من المعاملة مع الناس، والإحسان إليهم، والتأثير فيهم، وكسبهم... وفي كل عمل من أعمال الطاعات يهون هذا العمل إذا احتسب المسلم الأجر عند الله تعالى، كما أن كثيراً من الصعاب والمشاق، التي تواجه المسلم في دعوته وتعامله مع الآخرين تهون على نفسه إذا تذكر ما وراءها من الأجر عند الله عز وجل.

قال ابن القيم - رحمه الله -: "إن ما يصيب المؤمنين في الله تعالى مقرون بالرضا والاحتساب، فإن فاتهم الرضا فمعولهم على الصبر، وعلى الاحتساب، وذلك يخفف عنهم ثقل البلاء، ومؤنته، فإنهم كلما شاهدوا العوض هان عليهم تحمل المشاق والبلاء"[١٨].

ويذكر ابن القيم - رحمه الله تعالى- عن إحدى العابدات حين قطع إصبعها، وسُئلت عن سبب صبرها ؟ قالت: حلاوة أجرها أنستني مرارة ذكرها[١٩].

وسائل أو طرق كسب الأخ في الله

(١) العلم

إن المسلم لا يمكن أن يكون داعية إلى الخير ومعاني الإخاء الإسلامي، إن لم يكن عنده علم وتفقه في الدين؛ لأن ذلك من متطلبات الاختلاط والاجتماع، فهو معرض لأسئلة الناس واستفساراتهم؛ ولأن العلم يُمكنه من مخاطبة الناس على قدر عقولهم، ووفق مستوياتهم المختلفة وبدون ذلك لا يقدر على جذب وكسب الناس والتأثير فيهم.

لذلك فقد وردت آيات كثيرة وأحاديث عديدة في أهمية العلم والتعلم من ذلك:

١ - قوله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ**﴾[٢٠].

٢ - وقوله تعالى: ﴿**وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا**﴾[٢١].

٣ - وقوله سبحانه وتعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾[٢٢].

٤ - وقول النبي ﷺ: "من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين"[٢٣].

فالداعية الذي يريد كسب قلوب الآخرين يحتاج إلى العلم كحاجته إلى الطعام والشراب؛ وذلك لأن المسلم الذي يريد أن يدعو إلى الإسلام ويزرع في قلوب الناس معاني الأخوة الإسلامية يتطلب منه بعد الإيمان بالله والتوكل عليه قدراً من الثقافة والعلم والمعرفة والفقه والتجارب ما يساعده على تحديد المشكلة ثم كيفية التغلب عليها بالحكمة والعلاج الناجح.

ولذلك ينهج أهل العلم والدعاة إلى تكوين الثقافة والعلم الشرعي، وذلك لتكوين العلم الدافع إلى العمل على بصيرة ويقين. فالعلم قبل العمل؛ لأن العمل لا يكون صحيحاً إلا بانطباقه مع العلم إذ إن سبق العلم ضروري حتى يعرف المسلم مقصد ما يريد عمله. فكلّ ما يقوم به الداعية من عمل منسوب إلى المنهج والرسالة وبالتالي منسوب إلى الله سبحانه وتعالى، فيجب أن يكون ذلك العمل على بصيرة[٢٤].

العلمُ وسيلة إلى كلِّ فضيلة

(٢) القدوة الحسنة

إن المسلم الذي يريد أن يكون مؤثراً في غيره فيكسبه إلى جانبه، يجب عليه أن يطابق قوله مع فعله، وظاهره مع باطنه؛ لأن من يدل الناس إلى الخير والفضيلة، ولكن تصرفاته سيئة وسلوكه مشين، فلن يجني من دعوته إلا الصدود والبعد عنه، بل ربما تحدث ردود الفعل من المدعوين فيزيد الطين بِلّة. ومن أجل ذلك فقد أنكر الله عز وجل على من يقول ما لا يفعل ويبدي غير ما يخفي(٢٥)، فقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ ﴾(٢٦).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾(٢٧).

فيجب أن تطبع الشخصية الإسلامية وخصوصاً الداعية الإسلامية بالمعاني الأخلاقية لكتاب الله عز وجل، وسنة نبيه ﷺ.

وحيث إن الشخصية الإسلامية لها طبيعة اجتماعية وبشرية فلابد أن ينمي فيها ويؤسس لها الصفات الأخلاقية التي تمتد

بطبيعة النفس أو بطبيعة العلاقة على من حوله ولتأسيس الأخلاق أو لتكوين الأخلاق للداعية الإسلامية، ليكون قدوة حسنة يراعى الأمور التالية:

١ - أنه لابد من استيعاب ما في كتاب الله تعالى للتخلق به؛ لأن رسول الله ﷺ كان خلقه القرآن؛ ولأن كتاب الله عز وجل مليء بالأخلاق الكريمة والوصايا العظيمة.

٢ - أن الأخلاق الإسلامية ميزان توزن به شخصية المسلم الداعية وما عليه إلا أن يعرض نفسه عليها ليعلم ما له من تلك الأخلاق، كالصدق والصبر والرحمة والتواضع والمخالطة بالحسنى. وما عليه من غيرها ليتخلص منها.

٣ - الأخلاق الباطنة يجب أن تهذب حتى يستقيم الجانب الأخلاقي في الشخصية الإسلامية، فالداعية يجب أن يُطهر باطنه وظاهره من الأخلاق الرديئة ويعمره بالأخلاق المرضية، فمن الأخلاق الرديئة: الغل، والحسد، والبغي، والغضب لغير الله، والغش، والكبر، والرياء، والبخل، والطمع، والخبث، وحب المدح بما لم يفعل، والعمي عن عيوب النفس والانشغال بعيوب الخلق.

٤ - أن الداعية وهو يتقرب للناس بالدعوة والعمل يجب أن يتحلى بالشمائل الكريمة ومكارم الأخلاق، "من طلاقة، وإفشاء السلام، وإطعام الطعام، وكظم الغيظ، وكف الأذى عن الناس واحتماله منهم، والإيثار، وترك الاستئثار، وترك الاستنصاف، وشكر الفضل، وإيجاد الراحة، والسعي في قضاء الحاجات، وبذل الجاه في الشفاعات والتلطف بالفقراء والتحبب إلى الجيران والأقرباء"[٢٨].

ومكارم الأخلاق هذه يحتاجها الداعي لكسب قلوب الآخرين واجتذاب الناس إلى صفوف الدعوة، والهداية والاستقامة على دين الله سبحانه.

وعلى هذا يجب أن يكون الداعية أول العاملين بما يدعو إليه، فإن من أعظم الإثم والمقت أن يخالف عملُ الداعية ما يقول.

القدوة محطّ أنظار الناس،

فإن كانت طيبة تقربت إليها النفوس

(٣) الحلم والصَّبر

إن قضية كسب الناس وتحويلهم من الفساد إلى الصلاح قضية صعبة، فالهداية لا يمكن أن تأخذ طريقها إلى القلوب مرة واحدة، وإنما لابد لنجاح العملية من جهود ومتابعة متواصلة، وهذا يحتاج إلى صبر وإلى رفق وحلم؛ لأن أمزجة الناس وطبائعهم مختلفة وحاجاتهم متنوعة وهمومهم متعددة يحتاجون لمن ينفسها أو يفرجها عنهم.

وربما يتطلب إرشادك لإنسان ما أن تصرف من أوقاتك أو تضحي براحتك في بعض الأحيان، وربما يؤدي الأمر إلى أنْ تقدِّم بعض الهدايا من حسابِك الخاص.

ومن الواضح أن جميع هذه الأمور يجب أن تكون بصبر وحلم ورفق متجردة من الاشمئزاز والضيق، فيكون تحمل الداعية من منطلق المودة والمحبة والرحمة والشفقة على الناس المدعوين، لذلك فيصبر عليهم صبراً جميلاً ويحلم عليهم، فهو طبيب يعالجهم برفق وهدوء حتى وإن ظهر منهم ما يدعو إلى الغضب والانفعال، وصدق

الله القائل في كتابه الكريم: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾[٢٩].

لأن المسلم المهتم بأمور المسلمين كالشمعة تحرق نفسها لتضيء غيرها فلا يهمه راحة نفسه بقدر ما يهمه إيصال المعاني الإسلامية إلى قلوب الناس وجعلهم متحابين متعاونين. لذلك فقد يتأذى ويتجرع الغيظ لكن أجره عند الله.

فالصبر والحلم من الصفات الضرورية للداعية حتى يستطيع كسب الناس؛ كي يلتفوا حوله، ويستمعوا له.

وعكس ذلك الشدة فإنها أبداً لا تأتي بخير، بعكس ما يتصوره البعض؛ لأن من يعامل الناس بالقسوة والشدة والغلظة حتى يجعلهم كأنهم له أنداد، فيصبح مثلهم ويفقد تأثيره عليهم، وذلك يناقض السلوك القرآني والنبوي في الحلم والصفح[٣٠].

قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾[٣١].

إنما الأجر على قدر الصَّبر

(٤) التبشير والتيسير

إن من المهمات لكسب الآخرين التبشير والتيسير، فالمسلم الذي يبتغي أن يكون محبوباً عند الناس ويسمعون كلمته ويؤثر فيهم، عليه أن يعالج ما يجده عقبة بالتيسير والبشرى، وبالتي هي أحسن، فما كان الرفق في شيء إلاّ زانه.

قال سبحانه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٣٢).

وقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾(٣٣).

وأما التشديد والتنفير والتضييق فإنه مما يعيق الداعية عن مهمته من حيث يدري أو لا يدري. ولقد وُجد نماذج من الدعاة يأخذون أنفسهم وغيرهم بالشدة والعزيمة بحجة أن التساهل أو الترخص يفتح أبواباً أخرى للانحلال، فتراهم يصدرون الأحكام الاجتهادية والآراء الفردية وكأنهم أوصياء على الأمة، يفتون لأبنائها

بكل أمر صعب وشاق، فيضيِّقون سماحة الإسلام وَيُسْرِه في تشريعاته، وينفِّرون دوماً ولا يبشِّرون.

فالواجب على المسلم أن يكون بين الناس سمحاً سهلاً ليناً، وفي بيته، وفي الشارع، وفي الوظيفة، والمدرسة، والجامعة، ويكون لطيف المعشر يدخل السرور والأمل في قلوب الناس ولا يضيق عليهم أمورهم، ويحاول أن يجد الحلول المرضية لمشاكلهم في نطاق أحكام الشريعة.

إن لطف معشر المسلم وحسن تعامله مع الناس وتبشيره بالخير هو الذي يفتح القلوب فتتقبل ما يعرض عليها بكل رحابة وسرور.

ولا نعني بذلك أن يتساهل الداعية أو المفتي والمصلح في الأحكام بحجة تغيّر الفتوى بتغيّر الزمان والمكان والحال، ويحاول أن يصطنع للفقه الإسلامي مطاطية يتجاوز بها حدود الشرع بناءً على التطور والعصرنة؛ لأن ذلك يعدّ انهزاماً وضعفاً، وجعل الإسلام تابعاً لا متبوعاً.

إذن فالتساهل يكون في حدود الشرع وما لم تنتهك حرمة من حرمات الله أو يخل بحكم من أحكامه[٣٤].

ما دخلَ الرفقُ في شيء إلاّ زانه، وما زانَ المتكلمَ إلاّ الرَّزَانَةُ

(٥) الابتسامة

أو البشاشة، "فابتسامتك في وجه أخيك صدقة" فبعضهم يتوقع أن الصدقات حكر على الأغنياء، فنقول: لا؛ لأن الرسول ﷺ قال: "تبسمك في وجه أخيك لك صدقة"[٣٥].

ومن تحقيق معاني إفشاء السلام: "أن تُجلَّ أخاك إذا رأيته، فإذا أقبل الأخ على أخيه وقد علته البشاشة وهش في وجهه، وصافحه بحرارة وقوة، فقد حقق معنى من معاني إفشاء السلام، وكتب له أجرٌ على ذلك، ولهذا قال النبي ﷺ: "لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق"[٣٦].

فإظهار الفرح والبشاشة والابتسامة يولد في نفس أخيك المسلم محبة لك، وبهذا الفعل تكسبه بدون أي مقابل أو ثمن تدفعه له، فأقل أنواع البر أن تبش وتبتسم في وجه أخيك، ويأجرك الله على ذلك.

وبفعل هذا قد يدفع الله عنك غائلة شر من الشرور لا تعلمها، الله سبحانه يعلمها، قال الشاعر:

الـق العَـدُوَّ بوجـه لا قُطوبَ بهِ

يكاد يقطرُ من ماء البشاشات[٣٧]

والصدقة لا تنحصر في الابتسامة ن فإماطتك الشوك والعظم والحجارة والأذى عن الطريق صدقة، وإفراغك من دلوك إلى دلو أخيك صدقة، وإغاثتك للملهوف صدقة، وتروي العطشان صدقة... وهذه الأمثلة عندما ضربها الرسول ﷺ كما في الحديث ليس للحصر إنما للمثال، وهي كثيرة جداً.

وفسر ابن عباس - رضي الله عنهما - الصغيرة والكبيرة في قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا﴾[٣٨]. قال ابن عباس: الصغيرة: التبسم، والكبيرة الضحك[٣٩].

لماذا فُسرت بذلك؟ لأن الناس -والله أعلم- قد غفلوا عن هذه الحقيقة؛ لأن الابتسامة تخرج سجية دون أن تنتبه لها، فما يظن الإنسان أنها في ميزانه، وهي أنواع: فهناك ابتسامة مجاملة، وابتسامة نفاق ورياء، وابتسامة مصلحة، وابتسامة غزل، وابتسامة صدقة.. وهكذا. والمَلَك يكتب، فتأتي يوم القيامة والصفحة الواحدة قد تكون مدّ البصر فقط للابتسامة!!

ولهذا نبّه ابن عباس -رضي الله عنهما- إلى شيء غافلون عنه الناس، حتى إذا انتبهوا إلى هذا الشيء فإنهم سينتبهون إلى ما هو أكبر منه.

فحسن الاستقبال وطيب الكلام وبشاشة الوجه هي من وسائل كسب القلوب، وفرض المحبة والأخوة؛ لأن الوجه هو عبارة عن المرآة التي تعكس ما هو موجود في داخل أعماق الإنسان فإذا كان الوجه طليقاً بشوشاً كان موحياً بالبشر والمحبة في نفس المقابل.

أما إن كان عبوساً مظلماً فلا شك أنه يوحي في قلب المقابل بالضيق والاشمئزاز وعدم الانشراح.

لذلك فالذي يريد كسب الآخرين ينبغي عليه أن يكون دوماً ذا وجه طلق ولو كان بالتصنع والتكلف على سبيل التمرن والتدرب؛ لأن الطبع بالتطبع.

فينبغي للداعية أن يدعو الناس والابتسامة والبشاشة تعلو وجهه ولو كان في نفسه من المشاكل والهموم الكثيرة.

وَجَرِّب! والتجربة خير بُرهان..

واجه الناس بابتسامة صادقة؛ فهي من أوسع أبواب الدَّعوة، وأسرعها نفاذاً

(٦) سلامة الصدر

إن من أسباب الفرقة بين المجتمعات وبين الإخوان والأحبة، وبين الأخ وأخيه: (البغضاء والحقد والحسد) والعياذ بالله!

والبغضاء تحلق الدين وتفسد ذات البين، وهي التي تشتعل في القلوب، وتقطع الأرحام.

إن الحسد والحقد والكراهية والغيرة والبغضاء أمراض لا تحمد عقباها، بل هي نار تشتعل في قلب صاحبها فتحرقه أولاً ثم تنفر الآخرين منه. وبعض الجهلة من الناس يغذي هذه البغضاء في قلوب أبنائه وأحفاده، ويعلمهم بعداء القبائل والأسر والشعوب، ويذكر لهم تاريخ الجاهلية ودعواهم المنتنة، فلان من كذا، ونحن من قبيلة كذا..

وسبب تقاتل أبناء آدم - عليه الصلاة والسلام - إنما هو الحسد، قال تعالى: ﴿**أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ**﴾[٤٠].

ويقول الشاعر:

ألا قل لمن بات لي حـــاســـداً

أتدري على من أســأت الأدب؟

أســأت على الله ســبــحــانه

لأنك لم ترضَ لي مـــا وهب

فمن حسد مسلماً فقد أساء الأدب مع الله -عز وجل-؛ لأنه لم يرضَ بما قدّره الله - تعالى - وبما وهبه الله - عز وجل - لأخيه. والحسد في القلب نعرةٌ من نار، يأكل الحسنات، ويدمّر الصالحات، ويُعْدِم الإخاء والمحبة والألفة بين الناس.

وهناك أدلة شرعية كثيرة تدل على وجوب البعد عن الحقد والحسد، وأكمل الناس في هذا الباب من استطاع أن يخلّص نفسه من هذه الضغائن السوداء وأن يصفي قلبه من هذه الأدران، وقد بيّن النبي ﷺ ذلك في قوله: "لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعضٍ، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخ المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، التقوى هاهنا - ويشير إلى صدره ثلاث مرات - بحسب امرئ من الشرِّ أن يحقر أخاه المسلم"[٤١].

فمن أراد أن يكسب قلوب الآخرين وينجح في التعامل معهم فعليه أن يرتفع عن لوثات الخلق وسوء الطوية، وأن يبطن للآخرين الخير ويضمر لهم المعروف.

ومهما حاول الإنسان أن يتصنع الخير وهو يضمر الشر، فإن الله سوف يظهر ما بباطنه ويكشف عن سريرته يوماً ما[٤٢]، قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة

وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فإن استطعت يا أخي أن تمسي وتصبح، أو أن تصبح وتمسي وليس في قلبك غش ولا حقد ولا حسد على أحد من إخوانك المسلمين فافعل، قال سبحانه وتعالى: ﴿**رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾[٤٣].

فلنتعلم من الله سبحانه الرأفة، ولنتعلم من الله الرحمة، ونستغفر للسابقين، ونستغفر للاحقين، ونسأل الله ألاّ يجعل في قلوبنا لا على السابقين ولا على اللاحقين غلاً، والعياذ بالله.

ولو نظرنا إلى تصوير الغل في القلب، فإنه تصوير عجيب، فالقلب هذا اللحم الطريء، الذي ينبض بالحياة، وينبض بالدم على أيّ حال، أثناء نومك، وأثناء قيامك، ويتحرك ويدفع الدم إلى شعيرات تصل إلى أصغر الخلايا في جسمك، فتصور هذا القلب مربوطاً أو مقيداً بسلاسل، فكيف سيتحرك؟ وكيف سيدفع الدم؟

والغل من الأغلال وهي السلاسل[٤٤]، فبين القرآن بأن هذا القلب لما يحقد، ويكره أخاه المسلم، فكأنه مربوط بغل، أي مربوط بسلسلة، ومعنى هذا أن حياته غير طبيعية..

وعلى هذا ينبغي على المسلم البعد عن التباغض والتحاسد، وينزه نفسه عن هذه الخصال الذميمة.

لا راحة لحَسود!

(٧) إفشاء السلام

إفشاء السلام ورده من أعظم أسباب المحبة التي تبعث الطمأنينة وإدخال السرور على أخيك المسلم، وهو الباعث أيضاً لدخول الجنة، وهو باب واسع تكسب به قلوب الآخرين، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم"(٤٥).

والمقصود بإفشاء السلام: إكثاره وإشاعته ونشره على من عرفت ومن لم تعرف.

تجعل إفشاء السلام سبباً للمحبة، وجعل المحبة سبباً لدخول الجنة، فالحديث أفاد: أن دخول الجنة لا يكون إلا بأصل الإيمان، وأن الإيمان لا يكمل إلا بالمحبة والمودة بين المسلمين، وأن المحبة لا تنشأ فيهم إلا بإفشاء السلام.

كما أفاد أن تتعلم إفشاء السلام، ليس السلام فحسب وإنما

إفشاء السلام؛ لأن السلام ربما أنه يسلم على من يعرف ويترك مَن لا يعرف، يعني يخص ولا يعم...

فالرسول ﷺ قال: "أفشوا السلام بينكم" أول كلمة قالها عندما وصل إلى المدينة في الهجرة، كما يروي عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال: لما اجتمع الناس عليه، ذهبت إليه فرأيت له وجهاً ليس بوجه كذّاب، وكان أول ما قال: "يا أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصِلوا الأرحام، وصلوا - بالليل - والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام"(٤٦).

فقضية إفشاء السلام يفسرها الحديث الآخر، عن عبدالله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما - أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أي الإسلام خير؟ قال: تطعم الطعام، وتقرأ السلام على مَنْ عرفت ومن لم تعرف"(٤٧).

فالحديث يبين أن الإسلام يحب أن يشيع الخير في كل مكان، في البعيد، وفي القريب، في المسلم الطائع، وفي المسلم العاصي، فالذي يكره كلّه هو الكافر، والذي يحب كله المؤمن العامل، والذي يحب فيه شيء ويكره منه شيء ويُنصح على ما يكره فيه هو المسلم العاصي، وإن ارتكب الكبائر، فلا يؤيد على هذه الكبائر ولكن ينصح.

وكم بالسلام تفتحت قلوب، وابتهجت أرواح، وانسرت خواطر، وكم أنس به الخائف، واطمأن به المفزوع، واقترب به البعيد، وأخزيَ به الشيطان..!!

وعبارة إفشاء السلام على من عرفت ومن لم تعرف فتح الله بها آلاف القلوب، لكن بعض الناس وللأسف حوّل هذه العبارة إلى عادة، فأصبح يسلّم على زميله وقريبه وعلى مَن يعرف ولا يعمم السلام، بخل في شيء لا يُنْفَق فيه درهم ولا دينار.

قال ﷺ: "إنكم لن تسعوا الناس بأموالكم، ولكن يسعهم منكم بسطة الوجه وحسن الخلق"(٤٨).

فالسلام وإفشائه من أعظم الأخلاق الإيمانية، ومن أعظم وسائل المحبة وكسب الآخرين، وقد وردت النصوص في الحث على إفشائه ورده وقد ذكرنا جملة من ذلك.

قال الإمام النووي - رحمه الله - في "رياض الصالحين"(٤٩): "كتاب السلام: باب فضل السلام والأمر بإفشائه، قال الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا**﴾(٥٠)، وقال تعالى: ﴿**فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً**﴾(٥١)، وقال تعالى: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**﴾(٥٢) "اهـ.

قال سيد قطب -رحمه الله- معلقاً على هذه الآية:

"وقد جاء الإسلام بتحيته الخاصة، التي تميز المجتمع المسلم، وتجعل كل سمة فيه - حتى السمات اليومية العادية - متفردة متميزة، لا تندغم ولا تضيع في سمات المجتمعات الأخرى ومعالمها..

ونقف أمام اللمسات الكامنة في آية التحية هذه:

إنها - أولاً -: تلك السمة المتفردة، التي يحرص النهج الإسلامي على أن يطبع بها المجتمع المسلم بحيث تكون له ملامحه الخاصة، وتقاليده الخاصة..

وهي - ثانياً -: المحاولة الدائمة لتوثيق علاقات المودة والقربى بين أفراد الجماعة المسلمة.. وإفشاء السلام، والرد على التحية بأحسن منها، من خير الوسائل لإنشاء هذه العلاقات وتوثيقها.

وهي - ثالثاً -: نسمة رخية في وسط آيات القتال قبلها وبعدها "لعل المراد منها أن يشار إلى قاعدة الإسلام الأساسية " السلام" فالإسلام دين السلام. وهو لا يقاتل إلاّ لإقرار السلام في الأرض، بمعناه الواسع الشامل. السلام الناشئ من استقامة الفطرة على منهج الله"[٥٣] اهـ.

إذن: فالسلام تحية المسلمين، وهي كسب لقلوب الآخرين، وعبادة من رب العالمين، وأتم هذه التحية وأكملها: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته"، فهو دعاء للمسلم عليه بالسلامة والرحمة والبركة.

والسلام اسم من أسماء الله الحسنى، والسلام من محاسن الإسلام ومن حق المسلم على أخيه المسلم، وابتداؤه سنة عند اللقاء على من عرفت ومن لم تعرف من صغير وكبير وغني وفقير وشريف ووضيع، وهو يتضمن تواضع المسلم وأنه لا يتكبر على أحد، فمن بدأ بالسلام فقد برئ من الكبر، وأولى الناس من بدأهم بالسلام، وأبخل الناس الذي يبخل بالسلام(٥٤).

روى أبو داود بإسنادٍ جيد، عن أبي أمامة صُدَيِّ بن عجلان الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن أولى الناس بالله مَنْ بدأهم بالسلام"(٥٥).

وروى الترمذي عن أبي أمامة رضي الله عنه، قيل: يا رسول الله، الرجلان يلتقيان، أيهما يبدأ بالسلام؟ قال: "أَوْلاهما بالله تعالى"(٥٦).

ولذلك كان السلف الصالح رضوان -الله عليهم- إذا لقي أحدهم أخاه سلّم عليه، وإذا افترقا أو حال بينهما حجر أو شجر أو

جدار أو نحو ذلك، ثم لقيه سلّم أحدهما على الآخر وصافحه... فالله درّ هؤلاء!!

فأقول: مَنْ يُجدد لنا هذه الروح الطيبة، وهذه السيرة العطرة؟!

ومَنْ يُجدّد لنا تلك الصور الرائعة لسلفنا الصالح؟!

ولهذا روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله ﷺ أنه قال: "إذا لقي أحدكم أخاه فليسلم عليه فإن حالت بينهما شجرة أو جدار أو حجر ثم لقيه، فليسلم عليه"(٥٧).

فانظر يا أخي الحبيب: إلى هذه السنة، وبادر إلى تطبيقها، قال عمار بن ياسر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "ثلاثٌ من جمعهنَّ، فقد جمع الإيمان: الإنصاف من نفسك، وبذل السلام للعالم، والإنفاق من الإقتار"(٥٨).

قال الإمام ابن القيم -رحمه الله-: "وقد تضمنت هذه الكلمات أصول الخير وفروعه، وبذل السلام للعالم يتضمن تواضعه وأنه لا يتكبر على أحد، بل يبذُل السلام للصغير والكبير، والشريف والوضيع، ومن يعرفه ومن لا يعرفه، والمتكبر ضدٌّ هذا،

فإنه لا يرد السلام على كلِّ من سلّم عليه كبراً منه وتيهاً، فكيف يبذل السلام لكل أحد"(٥٩) اهـ.

ولو نظرنا إلى حالنا اليوم لوجدنا أن الأخ يلقى أخاه المسلم وينظر إليه -وجهاً لوجه- ولا يبدأ أحدهما صاحبه بالسلام، بل يطأطئ كل منهما أو الآخر رأسه وعينيه في الأرض، أو يلتفت يمنة ويسرة وما كأنه مرَّ بأحد.. فسبحان الله!!

قال الشاعر:

قد يمكث الناس دهراً ليس بينهم

ودّ فيزرعه التسليم واللطف

السلام تحية أهل الجنَّة

(٨) المصافحة

ومن معاني إفشاء السَّلام: المبادرة إلى المصافحة وبحرارة وقوة وشوق، فالمصافحة غير السلام، فهي عبادة مستقلة عن السَّلام.

عن البراء مرفوعاً أن النبي ﷺ قال: "ما من مسلمين يلتقيان، فيتصافحان إلاّ غُفر لهما قبل أن يتفرقا".

وفي رواية: "إذا التقى المسلمان أو المؤمنان، فأخذ كل واحد منهما بيد أخيه فحمدا الله وأثنيا عليه، غُفرت ذنوبهما قبل أن يتفرقا".

وفي رواية: "وإن كانت مثل زبد البحر"(٦٠).

فعندما أضع يدي بيدك، تُغفر الذنوب، وبهذا الأخذ أيضاً تتصل القلوب، وفيه تعبير على المحبة والوفاء والإخلاص وإحسان الظن.

أما أن أضع يدي في يدك اليمين، وأنا أطعنك في الشمال فهذا لا يعبّر عن الأخوة والمحبة في شيء.

وعن قتادة قال: قلت لأنس: أكانت المصافحة في أصحاب النبي ﷺ؟ قال: نعم[٦١].

فالمصافحة تقوي المحبة في القلوب، وداعية إلى التآلف بين المؤمنين.

وصافح لَمِنْ تلقاه من كل مسلمٍ

تُنَاثر خطاياكم كما في المُسَنَّد[٦٢]

التودّد إلى الناس نصف العقل